ميتافيزيقا الجوهر في فلسفة جون لوك

د. رسول محمَّد رسول [1]

يوحي موقف المفكِّر المصري الدكتور (زكي نجيب محمود) من خطاب الفيلسوف الإنجليزي (جون لوك)، والذي عبَّر عنه بقوله: "ليس من العسير أن نلمس روح لوك في كل مؤلَّفاته واضحة بارزة؛ فجميع كتبه ترمي، في حقيقة الأمر، إلى غرض أساس واحد هو مهاجمة التمسُّك بالتقاليد العتيقة، والنداء بضرورة حرية العقل في النَّظر إلى الحقائق وتكوين الأحكام" (*).

يوحي لنا هذا الحُكم النَّقدي بأن (جون لوك)، الذي تمكَّن من حسم عدد كثير من مشكلات الفلسفة التي تأمَّل فيها خلال حياته الفكرية، واجه صعوبة في التخلَّص من تبعات الفكر الميتافيزيقي العتيق حتى جعلته، تلك الصعوبة، مفكِّراً قلقاً بشأنها، ومن ذلك جأشه المتعلِّق بـ (إشكالية الجوهر) في خطابه الفلسفي؛ (الجوهر) الذي آمن بوجوده، ووصف ماهيته بأنها (ما يُدعم) الأشياء أو (ما يقف تحت) الأشياء، الأمر الذي يعني وجود ثنائية كثيراً ما تغنَّت بها المعرفة الميتافيزيقية في تاريخها الطويل؛ تلك الثنائية التي وقع هذا الفيلسوف في فخاخها، فكيف تمَّ له ذلك في ضوء تجربته المتعلِّقة بنقد خطاب المعرفة الميتافيزيقية وهو يعتمد مفهوم (الجوهر) كأحد المفاهيم المكوِّنة لبنائه الفلسفي في آن واحد؟ وتأسيس نظرية للمعرفة قوامها الإصغاء إلى صوت العالم الحسي، وفي الوقت نفسه، يستند، ذلك التأسيس، إلى صوت الميتافيزيقا الذي يكشفه الركون إلى مفهوم الجوهر؟

إذا كان مواطنه الإنجليزي (فرنسيس بيكون)، وهو الرائد المجدِّد للفكر التجريبي في العصر الحديث، لم يتمكَّن من مغادرة الباع الميتافيزيقي كلياً، فإن (جون لوك) اجتهد للتخلُّص من ذلك الباع

---

[1] روائي وناقد وأكاديمي متخصِّص بالفلسفة الألمانية، من مؤلفاته: الحضور والتمركز: قراءة في العقل الميتافيزيائي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000 والمعرفة النَّقدية: مدخل إلى نظرية المعرفة، دار الكندي، إربد ـ الأردن، 2001.ومحنة الهوية: مسارات البناء وتحولات الرؤية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2002.والعلامة .. الجسد.. الاختلاف.. تأمُّلات في فلسفة مارتن هيدغر، دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 2015.و فلسفة العلامة.. من جون سانت إلى جيل دولوز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2005.والتفلسُف النَّقدي.. إمانويل كانط والمعرفة البديلة، منشورات ضفاف – 2016 وما الفيلسوف؟ منشورات ضفاف 2016.، و العقلنة.. السبيل المرجأ، مكتبة الديار، بغداد، 1992.ونقد العقل التعارفي: جدل التواصل في عالم متغير، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004. ونقد العقل التدميري، المركز الثقافي العربي السويسري، بغداد . زيورخ، (طبعة محدودة)، 2009.ونقد العقل الإصلاحي: قراءات في جدلية الفكر العراقي الحديث، النايا للدراسات والنشر، دمشق، 2008.وصورة المثقَّف في المجتمع العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2011. و الإسلام السياسي في العراق الملكي، النايا للدراسات والنشر، دمشق، 2008.و– نقد العقل الإصلاحي: قراءات في جدلية الفكر العراقي الحديث، النايا للدراسات والنشر، دمشق، ط 1، 2008و مؤلفات في النقد الادبي والجمالي والسيميائي.

سوى ما كان أسيراً لثنائية الجواهر والأعراض، ومن ثم تأكيده على وجود (جوهر) بل (جواهر) من دون تحديد ماهيتها الحقيقية عدا أنها (ما يُدعم) الأشياء أو (ما يقف تحت) الأشياء، الأمر الذي جعله يدخل في أتون إشكالية فلسفية استدرج خلالها أحد المفاهيم (الجوهر) المقوِّمة للفكر الميتافيزيقي منذ فلاسفة الإغريق.

لا يمكن اعتبار جون لوك (1632 – 1704) فيلسوفاً شمولي الاتجاه، فهو ليس (أفلاطون) ولا (أرسطوطاليس) في العصر القديم، وبالضرورة هو ليس (رينيه ديكارت) ولا (جوتفريد ليبنتز) في العصر الحديث، إنه ذلك الفيلسوف الذي حمل مشعل الفكر التجريبي عن سلفه فرنسيس بيكون (1561–1626)، وكلاهما سار في دروب مغايرة للدروب الفكرية التي سلكها عدد من الفلاسفة الميتافيزيقيين والمثاليين.

حالة (الميتافيزيقا)

في مؤلَّفاته المتعدِّدة، لا تكاد تجد مصطلح (ميتافيزيقا) مذكوراً فيها سوى قليل القليل؛ ففي كتابه (مبحث في الفهم البشري)، الذي نشره في عام 1690، وردت هذه المفردة لخمس مرّات فقط بالرسم الموروث (Metaphysics)، ويذكرها أيضاً في مؤلَّفه (مجرى الفهم البشري)، الذي بدأ بكتابته منذ عام 1697 من دون نشره، فظلَّ مخطوطاً حتى وفاته عام 1704، ليتم نشره بعد ذلك، في هذا الكتاب أيضاً يذكرها لمرتين فقط برسم مختلف هو (Metaphysitians).

وكل هذا يشير إلى أن الرجل ما كان يحفل بدلالة ما هو ميتافيزيقي في كتاباته لأن سياق خطابه الفلسفي يتقاطع من الثقافة الميتافيزيقية أصلاً، وكذلك عزوفه الحميم عن أية مرجعيات ميتافيزيقية من الممكن أن تستأثر باهتمامه مقارنة بسلفة (فرنسيس بيكون) الذي احتفل، وعلى طريقته الخاصَّة، بالموروث الميتافيزيقي بحيث أجرى مقاربة فلسفية معه، لا سيما وهو الذي أكَّد بأن "الفهم البشري ما يزال يتلمَّس شيئاً ما سابقاً في نظام الطبيعة" (1). وكذلك قوله إن "العقل مغرم بالقفز إلى العموميات لكي يتجنَّب العناء، ولذا فإنه سرعان ما يضيق ذرعاً بالتجربة" (2) حتى آثر – بيكون – وجود علاقة عضوية بين (الفيزيقا) و(الميتافيزيقا)، وفي ضوء ذلك انصرف إلى بناء تلك العلاقة في فلسفته، بينما لم يذعن (جون لوك) إلى كل ذلك رغم معرفته به، فاندفع إلى تخطِّي المبنى الميتافيزيقي في فلسفته سوى ما حُوصر به في إشكالية الجوهر التي يجهل ماهيتها على وجه دقيق رغم أنه سيلجأ إلى تعريف تلك الماهية بأنها "دعامة"، وإنها "ما يقف تحت"، وإنها أيضاً "ما يدعم"، كما سنرى ذلك لاحقاً.

ما هو مُلاحَظ لدى لوك هو استفراغ (الميتافيزيقا) من أيه دلالة إيجابية؛ فأينما يُذكر هذا المصطلح في سياقات كتاباته المخصوصة به، نراه يطويه تملّصاً منه وراء خطابه الفلسفي الجديد؛ ولهذا نراه، وهو يتحدَّث عن الأفكار الصادقة والخاطئة، يفرِّق بين دلالة (الكلمة) = (Word) بمعناها الميتافيزيقي الذي يرفضه، والدلالة الأخرى غير الميتافيزيقية التي يحبذها، فيقول مثلاً: "يمكن أن تكون الأفكار والكلمات صادقة بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة" (3)، لكنّه يستدرك قائلاً: "إلاّ أن موضوعنا الحالي ليس هو المعنى

الميتافيزيقي للصدق" (4). وهذا أمر طبيعي كون خطاب لوك الفلسفي لا يؤمن بهذا المعنى الذي لا يولِّد إلاّ الغموض والارتباك في تناول الأفكار وبناء كيانها في قول فلسفي غالباً ما يكون مصاباً بالخلل والارتباك كونه يسبح في بحار الماوراء غير المجرَّب.

من ناحية ثانية، يؤكِّد لوك بأن "الاستعمال السَّيء للكلمات من دون وضوح ولا تميز أو حتى استعمال علامات من دون أن تدل على أي شيء واقعي، إنما يحدث من خلال طريقتين أو عبر مصدرين؛ هما: "أنك تحصل على مزيد من سوء استعمال الكلمات عن طريق الفلاسفة المدرسيين أولاً، ومن ثمَّ الفلاسفة الميتافيزيقيين ثانياً" (5). قال هذا وهو الفيلسوف الذي لا يفهم الوجود إلاّ بوصفه حالة حسية منظورة قابلة للتأمُّل الحسي، ولذلك أضاف قائلاً: "إن الصدق الميتافيزيقي لا يمثل شيئاً، إنما الوجود الحقيقي للأشياء هو الأصدق" (6)، وفي ذلك ميل إلى التطابق بين الأشياء وحقيقتها بقدر ميله إلى اعتبار العالم الحسي هو العالم الأساسي في بناء المعرفة.

يمضي لوك في سبيل تهميش الفكر الميتافيزيقي بإيغال أكثر عندما يعتقد أن الكثير من الكلمات التي نستعملها في حياتنا اليومية، ومن ذلك مثلاً كلمة (روح) التي ليست لدينا "معرفة أي شيء حول حقيقتها سوى ما تخبرنا به الكتب الميتافيزيقية واللاهوتية" (7)، وهذا ما يؤكِّد فداحة البناء المعرفي لدى البشر.

وكما أسلفنا؛ فهذا الفيلسوف، وبعد وفاته، ترك للقارئ مجموعة من البحوث والدراسات والكتب التي لم تحظ بالنشر في أثناء حياته، ومنها كتابه (مجرى الفهم البشري)، الذي نأى فيه عن استخدام مصطلح (الميتافيزيقا) سوى لمرتين فقط مثلما أسفنا القول في ذلك، فهو، وكما كان موقفه السلبي الآنف من المعرفة الميتافيزيقية، ظلَّ مصراً على أن "العوالم الميتافيزيقية تهيء الحراثة والبستنة للأفكار المجرَّدة" (8)، وهو أمر يمكن النَّظر إليه، وبحسب منظور لوك نفسه، بأن الأفكار المجرَّدة حان وقت الابتعاد عنها؛ فالجدوى إنما تكمن في الدلالات التي لها واقع موضوعي لا غير.

إشكالية (الجوهر)

في كتابه (طريق الفيلسوف)، قال جان فال عن كينونة كلمة (جوهر): "تعرفنا هذه الكلمة ذاتها بعض أشياء عن معناها؛ فالجوهر هو ما تقوم عليه الظواهر، وعندما نفكِّر في الجوهر، فإن ما يجول في خاطرنا هو فكرة شيء ثابت وراء التغير، وفكرة وحدة وراء الكثرة. ومن هنا، ندرك أن كلمة جوهر، مثلها مثل كثير من تصوّرات الميتافيزيقا، تدل على علاقة أو إذا توخينا الدقَّة، قلنا إنها تدلُّ على قسمة ثنائية أو تفرُّع ثنائي؛ إنها القسمة بين الظاهرات والجوهر، ولن يكون لفكرة الجوهر أي معنى لو لم يكن هناك شيء آخر *مختلف* عن الجوهر" (9).

لقد استأثر مفهوم (الجوهر) باهتمام الفلاسفة القُدماء، ومنهم منْ كان قبل (سقراط)؛ أولئك الذين بحثوا عن الجوهر كأصل للأشياء المادية وغير المادية، وحين وصل الأمر إلى (أفلاطون) افترض وجود مثُل عقلية تتسم بأنها أزلية وثابتة تتشكَّل في العالم الموضوعي من خلال محاكاة الناس لها، أما

(أرسطوطاليس)، والذي "استخلص معنى الجوهر من تجربة العالم الحسي"، كما يقول جول فويمان (10)، وهو أمر واضح المعالم، فقد جعل الجوهر أحد مفاهيم معجمه الفلسفي الصغير الذي تضمَّنه كتابه (ما وراء الطبيعة) من دون أن يجعل الجوهر مفارقاً للعالم الحسي على نحو مطلق، فالجوهر "يُقال على الأجسام البسيطة؛ التراب والنار والماء وجميع العناصر من هذا القبيل، ويُقال الجوهر عموماً على الأجسام، وعلى الأشياء، التي تتكوَّن منها، سواء أكانت كائنات حية أم موجودات إلهية، وهذه كُلها تُسمى جواهر؛ لأنّها لا تُحمل على شيء، بل ما يُحمل عليها كل شيء آخر. ويُقال الجوهر على العلّة المحايثة الداخلية للوجود في الأشياء السابق ذكرها؛ مثل النَّفس التي هي علّة الوجود في الحيوان، ويُقال الجوهر على الأعضاء المحايثة في تلك الأشياء التي لها حدود وتدلُّ على أفراد، والتي بتدميرها يُدمَّر الكل. ومن هنا، فإن للجوهر معنيين: (أ) هو الحامل النِّهائي الذي لا يُمكن أن يُحمل على أي شيء آخر. (ب) هو الذي يُقال على ما هو فرد، وما يُمكن أن ينفصل، وما له مثل هذه الطبيعة فهو الشكل أو الصورة لأي شيء" (11).

ومنذ ذلك الوقت، تم اعتبار مصطلح (الجوهر) مفهوماً ميتافيزيقياً بامتياز، وبحسب منظومة الفكر الميتافيزيقي التي رسمها كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطوطاليس، والذي لا يعد سوى استقراء للمفاهيم الميتافيزيقية التي سبقته، فأخذ مفهوم (الجوهر) يدخلُ كمصطلح في تعريفات المعاجم الفلسفية في الشرق والغرب؛ إذ عرَّفه (ابن المقفع) بأنه "عيناً" (12)، وعرَّفه (أبو يعقوب الكندي) بأنه "القائم بنفسه، وهو حامل للأعراض لا تتغير ذاتيته، موصوف لا واصف،" (13). وعرَّفه (الخوارزمي الكاتب) بأنه: "كل ما يقوم بذاته؛ كالسماء، والكواكب، والأرض وأجزاءها، والماء والنار والهواء، وأصناف النبات والحيوان وأعضاء كل واحد منها" (14). وعرَّفه (ابن سينا) بأنه: "اسم مشترك؛ يُقال جوهر لذات كل شيء كان كالإنسان أو كالبياض، ويُقال جوهر لكل موجود لذاته لا يحتاج في الوجود إلى ذات أخرى يُقارنها حتى يقوم بالفعل؛ وهذا معنى قولنا: الجوهر قائم بذاته، ويُقال جوهر لكل ذات وجوده ليس في محل، ويُقال جوهر لكل ذات وجوده ليس في موضوع، وعليه اصطلح الفلاسفة القُدماء، منذ عهد أرسطوطاليس في استعمالهم، اسم الجوهر" (15). ولم يخرج تعريف (الغزالي) للجوهر عن تعريف الشيخ الرئيس (ابن سينا)، بينما أخذنا (سيف الدِّين الآمدي) إلى تعريف للجوهر أرسى بموجبه ثنائية واضحة؛ فالجوهر، وعلى أصول الحكماء: "هو الموجود لا في موضوع، والمراد بالموضوع المحل المتقوَّم بذاته؛ المقوِّم لما يحلُّ فيه، وينقسمُ الجوهر إلى بسيط ومركَّب؛ أما الجوهر البسيط فهو العقل والنَّفس والمادّة والصورة، وأما الجوهر المركَّب فهو عبارة عن جوهر قابل للتجزئة في ثلاث جهات متقاطعة تقاطعاً قائماً" (16).

وهكذا ظلَّت دلالة مفهوم (الجوهر)، وعبر قرون عدَّة، تدور في مجال ما هو أنطولوجي (Ontology)؛ يقول جول فويمان في معرض بحثه عن الجوهر: "في أثناء المسيرة، سمّينا العلوم الثلاثة التي تتخذ من مختلف أنواع الجوهر موضوعاً لها: الفيزياء، وعلم الكرات ذوات المركز الواحد، وعلم اللاهوت. إن تخيُّل التجريد الرياضي يؤكِّد بدقة أن الجوهر هو الأول بين المقولات، وأن المقولات الأخرى

تكون جميعها تابعة له، خصوصاً مقولة الكمية، هذا الترتيب يمحض الجواهر وعلومها نظام حق التصدُّر الأنطولوجي؛ الفلك يتوقَّف على الثيولوجيا، والفيزياء تتوقَّف على الفلك، والرياضيات تتوقَّف على الفيزياء" (17).

الجواهر بعامَّة

في العصر الحديث، تغيرت نظرة الفلاسفة إلى مفاهيم العالم القديم التي بناها الفلاسفة الميتافيزيقيون القُدماء، وعلى العكس من ذلك، راح بعض الفلاسفة المحدثين الجُدد، ومنهم (جون لوك)، يتخلَّصون من موروث فلسفي كان قد وضع العالم في بوتقة أنطولوجية متساوقة الأطراف وفق مقولات ذات طابع دلالي ميتافيزيقي – منطقي، ومنها مقولة (الجوهر) = (Substance)، التي، ورغم كره لوك لها، بحسب ما يقول برتراند رسل (18)، استأثرت باهتمامه حتى سمح لنفسه النَّظر فيها، وعلى هامش ذلك ضمَّها إلى قاموس خطابه الفلسفي حتى صارت عنصراً مهماً في نسيج خطابه الفلسفي.

ولهذا، يصف (فرانكلين باومر) تعامُل لوك مع الميتافيزيقا بالتواضع مقارنة مع تعامل الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) معها، فيقول: "مع الاعتراف بأن ميتافيزيقا لوك كانت أكثر تواضعاً من ميتافيزيقا ديكارت، إلاّ أن لوك كان قد آمن أيضاً بوجود جواهر، أي بوجود أجسام معينة في المكان، وعلى سبيل المثال، لقد اعترف بفكرة العلية وبالله ذاته" (19).

ومن هنا، كثيراً ما ظهر مصطلح (الجوهر) في فصول كتاب لوك (مبحث في الفهم البشري)؛ ففي (الكتاب الثاني) منه، خصَّص المبحث الثالث والعشرين تحت عنوان (أفكارنا المركَّبة حول الجواهر)، وكذلك المبحث الرابع والعشرين الذي جاء إلى عنوان (الأفكار المنظومية للجواهر)، أما في (الكتاب الثالث) منه فاحتل (الجوهر) المبحث السادس وكان تحت عنوان (أسماء الجواهر). وكل ذلك يؤكِّد بأن مفهوم (الجوهر) كان ضاغطاً على نسيج الوعي الفلسفي لجون لوك بحث تطلَّب منه المزيد من البحث والتأمُّل والبناء النسقي في سياق بناء لوك لنظريته في المعرفة ذات الأساس التجريبي.

يعتقد أحد الباحثين في شؤون الفلسفة الحديثة، أن مسوّدات كتاب (مبحث في الفهم البشري) الأولى، لم تتضمَّن أي تناول لمفهوم الجوهر بصفة عامَّة، إنما جاء ذلك التناول تالياً (20). وما هو لافت هنا أن لوك تحدَّث، وفي الكتاب نفسه، عن (الجواهر بصفة عامَّة) قبل أن يدفعه إلى النشر، فقال فيه: "لذا، فإن من يختبر نفسه بالنسبة لفكرته عن الجوهر المحض بصفة عامَّة، لن يجد في نفسه إلاّ افتراضاً فقط، لما لا يعرفه كدعامة As Support لهذه الصفات القادرة على أن تُحدث فينا الأفكار البسيطة، تلك الصفات، التي تُسمى عادة باسم الأعراض. وإذا ما سُئل شخص ما: ما هو ذلك الشيء الذي ترتبط به صفتا الصلابة والامتداد؟ فلن يكون حاله أحسن حالاً من ذلك الهندي الذي رأى أن العالَم يرتكز على فيل كبير، ولما سُئل: على أي شيء يقف الفيل؟ كانت إجابته: على سلحفاة كبيرة! وحين اضطر إلى معرفة تلك الدعامة التي تحمل هذه السلحفاة ذات الظهر العريض، أجاب: إنها شيء لا يعرفه! وهكذا، فنحنُ في هذه الحالة، كما في الحالات الأخرى التي نستخدم فيها ألفاظاً من دون أن يكون في أذهاننا

أفكار واضحة عنها، نتكلَّم كالأطفال حين يُسألون عن شيء لا يعرفوه من ذي قبل، فيجيبون بهذه الإجابة المرضية: إنه شيءٌ ما! تلك الإجابة التي لا تعني في حقيقتها، سواء استخدمها الأطفال أو الرجال، إلاّ أنَّهم *لا يعرفون ما هو هذا الشيء*، وأن هذا الشيء الذي يتظاهرون بمعرفته، ويتحدَّثون عنه، ليس *لديهم عنه* أية *فكرة متميزة* على الإطلاق، ولذا فهم جاهلون به جهلاً تاماً وعلى نحو مظلم. وعلى ذلك، فالفكرة التي نطلق عليها الاسم العام *الجوهر* لن تعبِّر عن شيء سوى تلك *الدعامة المجهولة* Unknown support التي تفترض وجودها *لترتكز عليها* تلك الصفات التي نُدرك أنها موجودة، والتي لا يمكن أن نتخيَّل وجودها من دون شيء يدعمها، ونحن نُسمِّي هذه الدعامة أو الركيزة باسم *الجوهر*، الذي يعني، وتبعاً للدلالة الحقيقية في اللغة الإنجليزية الواضحة،

أنه ما *يقف تحت* Standing under أو *ما يدعم* Upholding" (21). بمعنى أن "فكرتنا عن الجوهر بصفة عامَّة هي فكرتنا عن ذلك الشيء المجهول الذي نفترض وجوده وراء تلك الصفات الحسية الموجودة في الأجسام، والتي لا يمكن أن نتصوَّر وجودها أو قياسها من دون وجود شيء يحملها؛ هذا الشيء الذي لا نعرفه، والذي نفترض وجوده هو ما اسميه بالجوهر – يقول لوك – أي ذلك الذي يوجد تحت الأعراض أو يقف وراءها أو الذي يُمسك بها" (22).

نخرج من هذا المقتبس والذي قبله، وكلاهما على غاية من الأهمية، بحقيقة أساسية هي أن تعريف (جون لوك) للجوهر بوصفه "دعامة"، وكذلك بوصفه "ما تحت"، يضمر عزوفاً عن استخدام البادئة الميتافيزيقية الشهيرة منذ أرسطوطاليس (Meta) = (ما بعد، ما وراء)، ولكن فاته أن كلا المعنيين سيرتبط بدلالة ميتافيزيقية كونه سينطلق من ثنائية واضحة؛ فهناك (شيء)، وهناك (ما تحت الشيء)، وهذه الثنائية هي عصب الفكر الميتافيزيقي، خصوصاً بعد ما أضفى لوك على دعامة الشيء التحتية أو الجوانية غير المعروفة صفة الحيوية من خلال استخدامه لملفوظ (الدعامة) أو (ما يدعم Upholding) أو (السند)، بحسب ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي (23).

إن ما زاد الأمر نبعاً ميتافيزيقاً لدى لوك هو استغراقه في نزعة (لا – أدرية) ما كان يفترض به الوقوع في حبائلها، فيقول مفسراً كل ذلك: "عندما يُلاحظ العقل ثمة صلة قوية تربط بين مجموعة من الصفات البسيطة المختلفة مثل: التفكير، والتعقُّل، والخوف، وغيرها، فإنه لا يستطيع أن يجدها في ذاتها، فنحن نعتقد بعدم قدرتنا على أن نرجعها إلى الجسم ظناً منّا بأنه يمكن أن ينتجها، لذلك يحدونا الاعتقاد بأنها إنما تعود إلى الجوهر. وفكرة الجوهر، بوجه عام، تدل على أن هناك موضوعاً معيناً لا ندري ما هو على وجه التحقيق، نفترض أنه مقوِّم لصفات حسية تؤدِّي إلى بعث مجموعة من الصور فينا، الصفات الحسية التي تصدم حواسنا، فليس لنا، من باب أولى، إلاّ أن نفترض وجود موضوع يتقوَّم به الفكر والشك والقدرة على التحرُّك.. وعلى ذلك، ففكرتنا عن *الجوهر الروحي* ليست بأقل وضوحاً من فكرتنا عن *الجوهر الجسماني*؛ فهذا الأخير يُنظر إليه باعتباره الدعامة للصور الحسية البسيطة التي تأتينا من الخارج، لكنَّنا نجهل ماهية هذه الدعامة! والجوهر الروحي يُنظر إليه باعتباره الدعامة للعمليات التي نجدها في أنفسنا

بالتجربة، وهو أيضاً مجهول منّا تماماً، ومعنى ذلك أن عدم معرفتنا بالجوهر الروحي أو الروح لا يبرِّر لنا إطلاقاً أن نستنتجَ عدم وجود الأرواح، تماماً كما لا يُبرِّر لنا عدم معرفتنا بالجوهر المادي إنكار وجود الأجسام" (24).

يبدو العالم، وبحسب جون لوك، مكتنزاً بجواهر كثيرة، مادّية وروحية، لكن (ماهية) هذه الجواهر، وبكل أشكالها، تبقى متوارية وراء الأشياء الحسية، بل غير معروفة لنا، نحن البشر، الذين نؤمن بأن العالم الحسي هو المصدر الوحيد لأفكارنا.

وما هو مؤسف، أن لوك لم يتمكَّن من إيجاد حل لهذه المعضلة الفلسفية عندما رمى الجواب عن (ماهية الجواهر) في عباب (لا أدرية) غريبة أو اعتقاده بأن معرفة (ماهية الجواهر) هو أمر لا يمكن بلوغه بالعقل البشري الذي نمتلكه، ولذلك نراه يؤمن بوجود الجوهر كفكرة، وفي الوقت نفسه، يعتبره "شيئاً أشبه باللامتناهي الفعلي؛ فهو موجود، لكنّنا لا نعرف ما هو، والاستقصاء الوحيد الممكن بالنسبة إلينا هو الاستقصاء التجريبي للكيفيات المشاركة له في الوجود" (25).

في نهاية المطاف، كان لوك قد قسم الأفكار المركَّبة إلى ثلاث، هي:

(أ) الأعراض أو الضروب أو الأحوال (Modes)، وهي التي تدلُّ على صفات لا تتقوَّم بنفسها أو بذاتها، بل توجد بغيرها؛ كالجمال الذي نصف به "الزهرة" أو التناسق الذي نصف به "الحديقة"، أو "الطيران" أو "الحمرّة".

(ب) الجواهر (Substances): وهي أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها؛ كفكرة الزهرة، والحديقة، والإنسان، والغزالة، والشجرة.

(ج) العلاقات أو الإضافات (Relations): وهي أفكار تعبِّر عن روابط معينة كفكرة الأبوة والبنوة، وعلاقات أكبر من وأصغر من (26). وهذا يمكن أن يعني بأن الجواهر المادية هي "الأفكار التي تقابل الأشياء الحقيقية الموجودة في الخارج" (27)، وهي أفكار مركَّبة تتكوَّن من أفكار بسيطة توجد بذاتها، وبذلك لم يخرج لوك عن السياق الميتافيزيقي في نظرته إلى الجواهر كأفكار مركَّبة تضمر تحتها معنى ما نحنُ نجهل ماهيته كون تلك الماهية غير معروفة لنا (Unknown essence) مهما تأمّلناها وكوَّنا عنها أفكاراً ذهنية وعقلية مركَّبة، فهي تبقى مجرَّد أفكار دالة على أشياء توجد بذاتها.

الجواهر الجزئية

يبدو لي، أن جون لوك، الذي كان يحتفي بـ (الواقعة) و(الحدث) من خلال اشتغاله على ظواهر العالم الحسية كمصدر مهم من مصادر تحصيل المعرفة البشرية، أذعن إلى منطق المفهوم عندما اعتمد الجوهر بعامَّة كعنصر مؤسِّس في خطابه الفلسفي، بيد أنه، ولكي يؤكِّد انهامه بالحدث الحسي، لجأ إلى مفهوم (الجواهر الجزئية)، وبذلك سقط مرة أخرى في كمين المطابقة (Identification)، ولكن بصورة مخففة هذه المرَّة كونه أقبل على معطيات العالم الحسي في جانب من جوانبها التي يمكن تحصيلها معرفياً، يقول يوسف كرم: "بعد أن وضع لوك الحقيقة في صحة لزوم العلاقات بين المعاني بالاستدلال،

عاد فجعل الحقيقة في المطابقة بين المعاني والأشياء، والمُراد المعاني البسيطة؛ لأن المعاني المركَّبة عبارة عن نماذج يصنعها الفكر ويتأمَّلها" (28) على أمل أن يتجه الفكر البشري نحو تكريس الاختلاف، لكن ذلك لم يمثل مستوى الطموح الفلسفي الخلاق، فالذهن البشري، وكذلك العقل البشري، لا ينتجا فكراً يتجاوز الكيفيات أو الصفات الأولية وحتى لو تجاوزاها إلى الكيفيات والصفات الثانوية المركَّبة فإن هذه الأخيرة تبقى تعتمد على ما أولي من صفات الأشياء المادية في العالم الحسي.

في ضوء ذلك، أخذ لوك يفكِّك بنية الجوهر الميتافيزيقية بوصفها سنداً قابعاً وراء الأشياء أو تحتها كدعامة مجهولة الهوية كونها متقوِّمة بذاتها وليس بغيرها، وذلك من خلال منهج استقرائي يتكشَّف به صفات الأشياء المادية؛ فلكل (شيء) ماثل أمامنا مجموعة من الظواهر الحسية يمكن أن نحصيها في ثلاثة أنواع، هي:

(أ): أفكار الصفات الأولية للأشياء أو الكيفيات الأولية، وتتضمَّن؛ الحجم، والشكل، والعدد، والوضع، والحركة، والأجزاء، والتي نعرفها بحواسّنا التي لنا، وبذلك فهي صفات واقعية مؤصَّلة في الأجسام حتى لو لم ندركها نحن بحواسنا كونها غير منفصلة عن تلك الأجسام.

(ب): أفكار الصفات الثانوية للأشياء أو الكيفيات الثانوية كالرائحة والطعم والصوت والحرارة والبرودة، وهذه تعتمد على الكيفيات الأولية بوصفها انفعالات للأشياء المادية، بمعنى أنها ليست من طبيعة وحقيقة الأشياء، بل هي تتضمَّن قوى تؤثر فينا إذا ما دخلنا مع الأشياء في علاقة تواصل.

(ج): القوى الإيجابية في الصفات أو الكيفيات الأولية والقوى السلبية في الصفات أو الكيفيات الثانوية، وتُعرف هذه القوى عن طريق الأفكار الحسية البسيطة.

في ضوء ذلك أيضاً، يقسِّم لوك الجواهر إلى مادية وروحية:

الجواهر المادية

الجوهر المادي أو الجسماني (Bodily substance) هو فكرة ذهنية مركَّبة دالة على الأشياء الواقعية أو المتعلِّقة بالعالم الحسي، وتتكوَّن من حاصل جمع وتركيب الصفات أو الكيفيات الخاصَّة بشيء من الأشياء المادية في هوية مُدركة، ومن ذلك أننا لو أردنا أن ننظر إلى طائر البجع أو إلى البجعة، نلاحظ أن "الفكرة التي ترمز إليها كلمة بجعة في ذهن الرجل الإنجليزي هي فكرة اللون الأبيض، والرقبة الطويلة، والظهر الأحمر، والأرجل السوداء، بالإضافة إلى القدرة على السباحة في الماء مع إخراج أصوات معينة..، كل هذه الأفكار البسيطة المنفصلة حين ترتبط في ذهن الشخص كان ارتباطها حول جوهر واحد من دونه لم تكن هذه الصفات لترتبط بعضها مع بعض، هو جوهر البجعة أو البجعة ذاتها" (29) بوصفها كائناً حياً من صنف الطيور.

وهناك مثال آخر يسوقه الفيلسوف المصري الدكتور (زكي نجيب محمود) حول الموضوع نفسه يقول فيه: "إن الجوهر *المادي* شيء مجهول لنا نجمع حوله مجموعة من الصفات *أو الكيفيات* الجزئية التي تأتي بها الحواس؛ فأنت تعرف عن البرتقالة مثلاً لونها جاءتك به العين، وملمسها جاءتك به

الأصابع، ورائحتها جاءك بها الأنف، وما إلى هذه من سائر الأفكار البسيطة، ولكن الشيء الحقيقي الذي أخذت تضيف إليه هذه الصفة وتلك حتى تكوَّنت في ذهنك البرتقالة مجهول" (30)، وذلك هو جوهر البرتقالة الذي نجهل ماهيته سوى أنه ما يقف تحت أو وراء البرتقالة أو ما يدعم فكرة البرتقالة كجوهر مادي.

الجواهر الروحية

مع الجواهر الروحية، يقترب جون لوك من عوالم التفكير الميتافيزيقي، فهو يفترض وجود جواهر روحية إلى جانب الجواهر المادية أو الجسمية. والجوهر الروحي (Spiritual substance) هو نقيض الجوهر المادّي أو الجسماني من حيث الوجود؛ فهناك أفكار لا أساس مادّي لها في العالم الحسي، ولا يمكن الكشف عن صفاتها أو كيفياتها المباشرة عن طريق الحواس، إنما عن طريق الفهم والذهن والعقل، ومن ذلك وجود جواهر روحية متناهية مثل (النَّفوس البشرية) إلى جانب وجود جواهر روحية غير متناهية مثل (الله)، جلَّ شأنه، وكلاهما لا نُدرك ماهيته ولكن يمكن أن تتكوَّن لدينا فكرة عنه، فكل الأشياء أو الجواهر المادية وغير المادية، وقبل أن توجد وتكون، لا نعرف عنها سوى القليل.

في نهاية المطاف، يبدو (الجوهر) في نظر جون لوك مجرَّد فكرة دالة على الأشياء، سواء كانت جسمانية أم روحية، وهذا يؤكِّد انخراط مشروع جون لوك الفلسفي في مسارات الفلسفة الميتافيزيقية، فهو، وفي أحد جوانبه الفكرية، لا يعدو أن يكون فيلسوفاً ميتافيزيقاً رغم اضطلاعه ببناء نظام معرفة ينهل من الواقع الحسي معطياته الأساسية.

لقد سعى لوك إلى فصم علاقته بالمعرفة الميتافيزيقية الموروثة كما حاول سلفه فرنسيس بيكون من ذي قبل، إلاّ أن الأول لم يتمكَّن من ذلك كلياً مثلما لم يتمكَّن من ذلك الثاني نفسه. على أن لكل تجربة لديهما محاولتها الخاصَّة بها؛ فبيكون افترض وجود علاقة عضوية بين الطبيعة وما وراءها أو بين الفيزيقا والميتافيزيقا، كما تحلو له التسمية، أما لوك فلم يأت إلى ذلك بهذه الطريقة، بل أزاح تلك العلاقة العضوية، وأكثر من ذلك، نأى بنفسه عن استخدام مصطلح (الميتافيزيقا) كفاعل مفهومي إيجابي سوى القليل، واكتفى بأن ينظر إليه بوصفه مفهوماً سلبي الوجود في عصره الحديث.

مع ذلك، راح لوك يوظِّف مفهوم (الجوهر)، وهو مفهوم ميتافيزيقي حدَّ النخاع، حتى ابتناه في نسيج فلسفته فكان للجوهر ميتافيزيقاه، لكنّه أبقى على الثنائية التركيبية الموروثة في رسم المصطلح على نحو استبدالي؛ إذ تخلى عن البادئة المصطلحية (Meta) المعروفة ضمن المصطلح الموروث (ميتافيزيقا) = (Metaphysics)، واستدرج، بدلاً عنها، مفردة (Under)، وذلك ضمن مصطلحه الذي اقترحه (Standing under) = (ما يقف تحت)، الذي عرَّف به (الجوهر)، والذي يتضمَّن دلالة (ما بعد أو ما وراء) المفهومة في البادئة الميتافيزيقية القديمة (Meta) ليوحي بعالمين؛ عالم الأشياء، وعالم ما يقف تحتها أو وراءها.

كل ذلك يعني أن جون لوك، الذي كره مصطلح (ميتافيزيقا)، وقلَّل من شأنه، آب وأذعن إلى خطاب هذا المصطلح الفلسفي من خلال أخذه بمصطلح (الجوهر)، بل (الجواهر)، كبنية عميقة حيثُ

إيمانه بثنائية فلسفية قوامها (الشيء) بل و(ما وراء أو تحت الشيء)، كإيمان غيره من الفلاسفة الميتافيزيقيين المحدثين الذين صدحوا بصوت ميتافيزيقي واضح فيما كتبوا من نصوص فلسفية مثل رينيه ديكارت، ونقولا مالبرانش، وباروخ سبينوزا، وجوتفريد ليبنتز.

الهوامش و المصادر:

———

(*) د. زكي نجيب محمود: قصَّة الفلسفة الحديثة، ص 197، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.

(1) فرنسيس بيكون: الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة: د. عادل مصطفى، (ك 1، الفقرة 48، ص 35)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013.

(2) فرنسيس بيكون: المصدر السابق نفسه، (ك 1، الفقرة 20، ص 22).

(3) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, Chapter xxxii, sec. 2, P. 125). (Pdf).

(4) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, Chapter xxxii, sec. 3, P. 125).

(5) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book III, Chapter x, sec. 2, P. 169).

(6) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book III, Chapter x, sec. 11, P. 207).

(7) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book III, Chapter viii, sec. 9, P. 221).

(8) Locke, (j): Of the Conduct of the Understanding, (sec. 44, P. 188). Ed. Paul Schuurman, University of Keele, 2000. (Pdf).

(9) جان فال: طريق الفيلسوف، ترجمة: د. أحمد حمدي زقزوق، مراجعة: د. أبو العلا عفيفي، ص 39، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1967.

(10) جول فويمان: الجوهر، ضمن كتاب: (أي فلسفة للقرن الحادي والعشرين؟ مجموعة مؤلِّفين، ترجمة: أنطوان سيف، مراجعة: الحسين الزاوي، ص 55، وكذلك ص 66، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011).

(11) د. إمام عبد الفتاح إمام: مدخل إلى الميتافيزيقا.. مع ترجمة للكتب الخمسة الأولى من ميتافيزيقا أرسطو، ص 356، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005.

(12) د. عبد الأمير الأعسم: المصطلح الفلسفي عند العرب، ص 217، مكتبة الفكر العربي، بغدد، 1986.

(13) د. عبد الأمير الأعسم: المرجع السابق نفسه، ص 191.

(14) د. عبد الأمير الأعسم: المرجع السابق نفسه، ص 217.

(15) د. عبد الأمير الأعسم: المرجع السابق نفسه، ص 249.

(16) د. عبد الأمير الأعسم: المرجع السابق نفسه، ص 368 وما بعدها. يستعرض (الآمدي) مفهوم الحكماء، ويقصد الفلاسفة، وكذلك علماء الكلام أو المتكلِّمين، انظر: (ص 370).

(17) جول فويمان: الجوهر، المصدر السابق نفسه، ص 63 – 64.

(18) أورد: (د. صالح الشماع: مشكلات الفلسفة من حيث نظرية المعرفة والمنطق، ص 57، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، 1977).

وهنا، تجدر الإشارة، إلى أن مؤرخ الفلسفة (الفريد وليام بن)، وفي كتابه (تاريخ الفلسفة الحديثة)، لم يضع لوك ضمن الفلاسفة الميتافيزيقيين في (الفصل الثاني)، والمعنون بـ (الميتافيزيقيون)، ص 31 وما بعدها، وهو الفصل الذي تناول فيه كل من (ديكارت)، و(مالبرانش)، و(سبينوزا)، و(ليبنتز)، ولا اعرف لماذا لم يسلط الأضواء على تجربة لوك في بناء معرفة تنطوي على بُعد ميتافيزيقي انظر:

(Benn, (A. W); History of Modern Philosophy, Watts and Co, London, 2010).

(19) فرانكلين باومر: الفكر الأوروبي الحديث: الاتصال والتغير في الأفكار، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، ص 51، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987.

(20) ورد ذلك في كتاب: (د. عزمي إسلام: جون لوك، ص 102، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت). يقول اميل برهييه: "إن الطبعة الثانية من كتاب *مبحث في الفهم البشري* التي صدرت عام 1694 احتوت على إضافات وتغييرات شتى" انظر: (اميل برهييه: تاريخ الفلسفة، ج 4، القرن السابع عشر، ترجمة: د. جورج طرابيشي، ص 327، دار الطليعة، بيروت، 1983).

(21) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, Chapter xxiii, sec. 2, P. 89).

أوردنا الترجمة الكاملة لهذا المقتبس، مع بعض التعديل البسيط، عن الدكتور عزمي إسلام في كتابه: (جون لوك، ص 229 – 230). وانظر أيضاً: (ص 100، المرجع السابق نفسه).

(22) د. عزمي إسلام: جون لوك، ص 101.

(23) يقول الدكتور محمَّد فتحي الشنيطي: "إن اسم الجوهر يدل على سند مع أننا لا نملك يقيناً أية فكرة واضحة ومتميزة عن ذلك الشيء الذي نفترض كونه سنداً". انظر: (د. محمَّد فتحي الشنيطي: في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص 16، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1968).

(24) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, Chapter xxiii, sec. 5, P. 90).

أوردنا الترجمة الكاملة لهذا المقتبس، مع بعض التعديل البسيط، عن الدكتور يحي هويدي في كتاب: (بول جانيه وجبريل سباي: مشكلات ما بعد الطبيعة، ترجمة: د. يحي هويدي، مراجعة: د. محمد مصطفى حلمي، ص 138 – 139، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1961).

(25) اميل برهييه: تاريخ الفلسفة، ج 4، القرن السابع عشر، ص 340.

) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, 26(Chapter xii, sec. 6, P. 42).

وحول أنواع وطبيعة الأفكار لدلا جون لوك، أنظر دراستنا: (د. رسول محمد رسول: الحدس العاري في فلسفة جون لوك، مجلة (الأقلام)، العدد (2)، السنة (السابعة والأربعون)، أيار/ آب 2012، بغداد، العراق. ص 43 وما بعدها.)؛ حيث قسّم الأفكار إلى صنفين، هما:

أولاً: توجد (الأفكار البسيطة) = (Simple ideas) على ثلاثة أشكال، هي: الأفكار المحسوسة بحواسنا المعروفة مثل فكرة البرودة والصلابة والخشونة، والأفكار المدركة داخلياً أو باطناً التي ترجع إلى الذاكرة والانتباه والإرادة، والأفكار المحسوسة والمدركة مثل فكرة الألم والوجود والوحدة والدوام والعدد والقدرة، وهي مشتركة بين العالمين الخارجي والداخلي.

ثانياً: توجد (الأفكار المركَّبة أو المعقَّدة) = (Complex ideas) على شكلين هما: أفكار بسيطة يؤلِّفها العقل من معنى واحد مثل معنى الذهب أو معنى الإنسان. وأفكار أخرى يؤلِّفها العقل من المعاني البسيطة على نحو متمايز كفكرة الإضافة، وفكرة البنوة التي تجمع بين معنى الأب ومعنى الابن، وفكرة العليَّة التي تعتمد على التوقُّع الذاتي الداخلي، وغير ذلك مما يدخل في هذا الإطار من أفكار مؤلَّفة أو معقدَّة.

(27) د. زكي نجيب محمود: قصَّة الفلسفة الحديثة، ص 211.

(28) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 148. وانظر أيضاً: (د. زكي نجيب محمود: قصَّة الفلسفة الحديثة، ص 214).

) Locke, (j): An Essay Concerning Human Understanding, (Book II, 29(Chapter xxiii, sec. 16, P. 93).

ترجمة النص نقلاً عن: (د. عزمي إسلام: جون لوك، ص 101).

(30) د. زكي نجيب محمود: قصَّة الفلسفة الحديثة، ص 211.